ماهى الحياة ؟

مذهب لودانتك فى الحياة

بقلم الاستاذ الفيلسوف فريد بك وجدى

كان العلامة (لودانتك) مدرساً لعلم الحياة فى جامعة السوربون بفرنسا ، وهو ركن من أركان الماديين فى هذا العصر .

يذهب هذا البيولوجى أن لكل خلية أولية من الاجسام الحية حياة خاصة تتألف من مجموعها الجسم الحى حياته العامة .

قال إنه بالتأمل فى كل خلية حية نجد أنها لا تفترق عن المادة الجامدة إلا بخاصة التمثيل أى بأحالة المواد الجامدة التى تتناولها إلى مادة مماثلة لمادتها . والمشاهد أنه لو صار جسم جامد محلا لتفاعل كيماوى ، فانه ينقص و ينتهى أمره بالتلاشى ، ولكن إذا أصبح جسم حى موضعاً لمثل ذلك التفاعل في بيئة صالحة ، فانه يحفظ تركيبه ، ويزداد نمواً ، وهذا هو المعنى المراد من كلمة التمثيل ، و تحديده ضرورى لفهم معنى الحياة .

و إذا بلغ جسم حى مكون من خلية واحدة حداً معيناً فانه ينقسم إلى خليتين ، فتنمو كلاهما حتى اذا وصلتا الى حدمعين انقسمتا بدورهما وهلم جرا ... وهذا هو التوالد ، وهوالميزة للأجسام الحية . وأما الموت فهو انهدام المادة الحية ، أى استحالتها إلى مادة غير آلية فتصبح غير صالحة للتمثيل .

قال لودانتك : فيظهر من هنا أن الاستحالات التى تحصل للخلية تأتيها من فواعل خارجة عنها : طبيعية وكيماوية تابعة للبيئة، لا ذاتية فى الخلية .

وقال : أما حياة الأجسام المكونة من خلايا كثيرة من أول الكائنات الحقيرة إلى الانسان نفسه فهى لا شىء غير مجموع حياة خلاياه الجسمية كلها .

هذه خلاصة مذهب لودانتك وهى معتمد الماديين اليوم .

ولكن يوجد بازائه علماء يعتبرون أرفع منه كعباً فى البيولوجيا : كالعلامة (توماس هكسلى) و (روسل ولاس) و (دارون) الانجليز ، و (ارنست هيكيل) و (كيرنر) الألمانيان وغيرهم قرروا بأن هذا التعليل لا يفسر معضلات الحياة فى الأجسام الحية ، ولا يحل غوامضها .

فأما دارون فقد قال : إن الأنواع مشتقة كلها من خلية واحدة أو عدة خلايا حية نفخ فيها الخالق روح الحياة ، فهو يعتقد أنها استمدت الحياة من خالق حي أوجدها أولا ، ثم أخذت في التنوع على مقتضى نظريته بالانتخاب الطبيعي كما يعرف من مذهبه المشهور .

وقال العلامة (روسل ولاس) في كتابه (عالم الحياة) المطبوع سنة ١٩١٤ في صفحة ٤ منه : « إن الظواهر القائمة بالكائنات الحية هي من العجب ، وخصائصها من التفوق على جميع الصور المادية الخاضعة للنواميس الآلية طبيعية وكيماوية ، بحيث إنه من العبث المحض أن يحاول البيولوجيون الوقوف على سر مظاهرها العجيبة وتحديد كنه الحياة بوضوح تام وبعبارات علمية »

وقال الأستاذ (كيرنر) الألماني في كتابه الممتع (التاريخ الطبيعي للنباتات) : « الظواهر المشاهدة في (البروتوبلاسما) الحية في أثناء نموها وأخذها شكلها النهائي لا يمكن أن تعلل في مجموعها بوجود تركيب خاص (للبروتوبلاسما) لكل نوع من أنواع النباتات .

ثم قال : « لذلك لا أتردد أصلا في تسمية هذا التأثير الطبيعي (قوة حيوية) لا يجوز الخلط بينها وبين أية قوة أخرى ، وأن آلة هذه القوة (البروتوبلاسما) وأن نتائجها الخاصة تعتبر بيننا مؤلفة لما يسمى بالحياة »

وقال الأستاذ الكبير (ارنست هيكيل) الألماني كما رواه عنه الأستاذ (روسل ولاس) في كتابه (عالم الحياة) : « إن كل خلية لها روح تدبرها ، ولكنها لا تشعر بوجودها » وقال أكبر بيولوجي العصر الراهن العلامة (توماس هكسلي) الانجليزي في كتابه (المدخل على ترتيب الحيوانات) صفحة ١٠ عند كلامه على جماعات الحيوان المسمى (أميب) Amibe قال : « في كل المملكة الحيوانية لا يوجد مجموع يفوق هذا المجموع في تأييد هذا المذهب القوي الذي أومأ اليه (جون هنتر) أكثر من مرة : وهو أن الحياة هي علة وجود الأجسام لا أنها نتيجة لها ، لأنه في هذه الصورة الدنيئة للحياة الحيوانية (يريد جماعات الأميب) لا يصادف الباحث مهما توسل بالآلات الدنيئة التي يملكها اليوم أي أثر للتركيب الجسماني فيها . فان هذه الاجسام لا شكل لها ، ومجردة من الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة ، ومع ذلك فانها تملك الخصائص والمميزات الأصلية للحياة ، حتى أنها تستطيع أن تبتني لنفسها قواقع ذوات تراكيب معقدة أحياناً ، وعلى غاية ما يمكن من الجمال .

وقال العلامة الفرنسي الدكتور (ج . جوليه) في كتابه (من لاواع إلى واع) في طبعته الثالثة الصادرة في سنة ١٩٢٠ قال :

« قال شوبنهور : كلما انحط الانسان في القوة العقلية قلت مسائير الوجود في نظره ... فكل شيء عنده يحمل معه تفسيراً لكيفية وجوده وسبب حدوثه . فهذا جسمنا لا شيء أقرب الينا من وظائفه ، وكذلك لا شيء أبسط منها في نظر النظر العامي ، والواقع أنه لا يوجد

أعصى منها على أفهامنا . فالحياة لا تزال سراً مكتوماً ، والحركة الحيوية ، ونشاط الوظائف العضوية الكبرى ليست أقل منها تعاليا عن مداركنا . هذا النشاط الذى لا يخضع للارادة الشاعرة لذواتنا ينشأ ويتم بدون شعور منا ، كما ينشأ ويتم فى الفيزيولوجيا المسماة بفيزيولوجية ما فوق الطبيعة »

« بل إن التركيب الجسمانى ، وكل ما يتعلق به من الميلاد والنماء والتطور الجنينى وما بعده ودوام الشخصية مدة الحياة والتجدد الذى يحدث لبعض الحيوانات فى بعض أعضائها ، بل وفى بعض غددها ، كل هذه الأمور أسرار لا تدرك إذا أخذنا بالقول المدرسى فى مسألة الشخصية (يريد القول بأن شعور الانسان بشخصيته هو مجموع الشعورات الجزئية لكل خلية من خلاياه) »

ثم قال « فلنحاول أن نفهم على ضوء هذه النظرية قيام هذه الشخصية التشريحية الفيزيولوجية وأداءها لوظائفها ، ولندع جانباً إلى حين النظر اليها من الوجهة الفلسفية المحضة بل ومن الوجهة النفسية البسيطة ، ولا نواجهن إلا الوجود الطبيعى أى الشخصية الفيزيولوجية باعتبار أنها مجموع حياة الخلايا الجسدية . فمن أين حصل هذا المجموع من الخلايا المركبة لأى شخص من الأشخاص على صورته النوعية ، وكيف تم له ذلك ؟ وكيف يحفظ شكله طوال مدة حياته ؟ وكيف تتكون شخصيته الطبيعية ، وتحفظ وجودها وتعيد تكوين بعض ما دثر من أعضائها ؟ » ثم قال : « من أين كل هذا ؟ وكيف ؟ ولماذا نقول مرة أخرى إن هذا من المسائير الطبيعية ؟ وقد وصفه (دستر) بأنه من الأسرار التى لا يسبر لها غور لما يحدث فى أثناء نمو الخلية الجرثومية ، من جذبها إلى نفسها المواد الخارجة عنها ، ووصولها بذلك إلى إقامة هذا البناء المدهش وهو الجسم الحيوانى والانسانى ... ومع هذا كله حاول بعضهم ووجد لهذه المسائير تفسيراً ولكنه من الضعف بحيث يوجب الحيرة » انتهى

نقول إننا لم نعلق فى هذه المقالة أكثر من مقابلة أقوال العلماء البيولوجيين بعضها ببعض وعلى القارىء أن ينضم إلى أقواها أساساً ، وأقومها منطقا ؟

محمد فريد وجدى

الدسائس والدماء

بقلم احمد خيرى سعيد — : قصة تاريخية تصور الحياة المصرية فى عصر ذهبى